الإمام علي والمثالية

بقلم خليل الهنداوي

« اني أكره لكم ان تكونوا سبابين ... ولكن قولوا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، واصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن البغي والعدوان من لهج به »

(علي)

*

قلما اجتمع في رجل من الاذاب المثالية ما اجتمع لعلي (١) ، لان مثاليته قد استوحت من مثالية عصره ، ومن مثالية ما فوق عصره ، مما تتفرغ له الانسانية بين الحين والحين .

في هذه المثالية خلائق فردية تسمو بصاحبها ، وخلائق اجتماعية تتصل بمعاملة الناس على نحو نبيل . وقل ان يستوعبها انسان . وهي بالنسبة الى نفسه كانت خلائق قاسية ، لان صاحبها اراد منها اداة تهذيب للنفس ، وهي بالنسبة الى المجتمع عادلة منصفة ، لاتحابي ولا تعادي .

ومن سمو هذه المثالية انها تزكو على مستوى واحد . لا فرق عند صاحبها بين نفسه وبين غيره ، ولا تمييز بين اصدقائه واعدائه ، لان جميع هؤلاء ينبغي لهم ان يعاملوا بهذه المثالية معاملة واحدة . فاذا الصديق لا يطمع ان ينال على صداقته اجرا ، واذا العدو لا ييأس من ان يدرك — وهو العدو — انصافه منه عند الغلبة .

وقد بعد علينا ان نتلمس مواطن هذه المثالية ، سواء في نفس علي ، او في خطوط حياته ، لا لانها معقدة الجوانب ، او مطموسة الخطط ... بل لانها بلغت من الوضوح احدا ، تنعكس به في كل كلمة ، وفي كل وجهة ، وفي كل حادثة . وكما قلت ، ان حياة علي بن ابي طالب هي مثالية قائمة بنفسها .

ولكن ... لا بد من الاستشهاد ببعض الامثلة المميزة لهذه الشخصية :

لقد أخذ علي نفسه بآداب مختلفة ، مردها كلها الى ما تمتاز به الشخصية الجاهلية ، من مروءة ، واباء ، ونجدة ، وبطولة ، وايثار . وهي اداب عملت في تكوينها مثل شتى متوارثة ، ومكسوبة . نشأت على اثار الجاهلية ، وفي ظلال الاسلام . ومهما اردنا ان نجرد عليا من الطابع الجاهلي — وان لم يعش جاهليا — فان في الكثير من صفاته ، وآدابه ما يعود الى الجاهلية . لان الاسلام ، وان ناوأ هذه الجاهلية وحارب العزة الجاهلية ، فانه لم يستطع ان يخلق شخصية عربية — غير الشخصية الجاهلية — في ليلة وضحاها . فتلك بقيت الجاهلية في كثير من الادب الاسلامي ، والتفكير الاسلامي ، والعصبية الاسلامية التي استمدت من العصبية الجاهلية .

من هذه الاداب التي اخذ بها علي نفسه اداب الفروسية . وهي اداب لا تعتمد على فن البطولة والقتال فحسب .. وانما للفروسية اداب كان يأخذ بها العربي الجاهلي غريزة ، دون ان تكون نظاما . ومجمل هذه الاداب ان صاحبها لا يباهي بفروسيته ، ولا يتبجح بقوته . ولا يهش بسيفه على اعزل او ضعيف ، ولا يقاتل مستسلما ، ولا يتبع منهزما . اضف الى هذه الآداب ما زادت فيه الاداب الاسلامية ، وبخاصة في الحروب الاهلية . فما كان لعلي ان يضع سيفه قبل ان يشهر العدو سيفه . وعند ذلك يلبس الدفاع زي الهجوم . كل ذلك يفعله خشية ان يكون ظالما باغيا .

وبطولة علي الجسدية والمعنوية رويت فيها اقاصيص كثيرة . ولابد انه كان ذا جسد قوي ، وقلب شديد ، وعزم نافذ . تخشى لقاءه الابطال ، وتفر من وجهه قروم الحرب . يقال انه ما حمل على صف الا ارجعه ، وما دخل في زحف الا فرقه . وهو ، بعدذلك ، واحد من اولئك الذين مكنوا للاسلام بقوتهم وايمانهم .

وملاك هذه الفروسية لايقف عند البطولة الفتاكة ، وانما يقف عند ما يملك صاحب هذه البطولة نفسه عند الاندفاع ، ويعامل عدوه بالرحمة في الحين الذي لو ظفروا به لظفروا به قطعا ممزقة .. هذه هي البطولة المثالية التي تستند الى مثالية الانسانية فيه .

« ومروءة الامام اندر من أن يكون لها مثيل في التاريخ ، وحوادث المروءة في سيرته اكثر من ان تعد . منها : انه ابى على جنده ، وهم في حال من النقمة والسخط ان يقتلوا عدوا تراجع ، وان يتركوا عدوا جريحا فلا يسعفوه ، كما ابى عليهم ان يكشفوا سترا او يأخذوا مالا . ومنها انه صلى في وقعة الجمل على القتلى من اعدائه وطلب لهم الغفران . وانه حين ظفر بألد أعدائه الذين يتحينون الفرص للتخلص منه ، وهم عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ، عفا عنهم واحسن اليهم ، وابى على انصاره ان يتعقبوهم بسوء وهم على ذلك قادرون .

وفي معركة صفين حاول معاوية وجماعته ان يميتوا عليا عطشا ، فحالوا بينه وبين الماء زمنا ، وهم يقولون له : « ولا قطرة حتى تموت عطشا » ، فحمل عليهم واجلاهم عن الماء ، ثم اتاح لهم ان يشربوا منه كما يشرب جنده . وهو لو منع الماء لانتصر عليهم ، واضطرهم الى التسليم خشية الموت ظمأ .

وهو الذي ترفع عن مقابلة الامويين بالسباب يوم جعلوا

(١) فصل من كتاب بعنوان « الامام علي من خلال نهج البلاغة » يصدر هذا الشهر عن دار الاداب .

يرشقونه به ، فليس من خلق العظيم ان يقابل من ناصبوه العداء بالسباب ، ولو سبوه . بل انه منع على أصحابه أن ينال ممن ناصبوه بالشتيمة المقذعة . فهوما كاد يسمع قوما من أصحابه هؤلاء يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين، لأنهم سايروا الغدر ، وماشوا الخديعة ، حتى قال لهم :

« اني اكره ان تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم اعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول ، وابلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم اياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم . وأصلح ذات بيننا وبينهم . واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج بـه » (١) .

بهذه المثالية الانسانية السامية لقي علي أعداءه . حتى عد أصحابه ذلك منه تهاونا واستسلاما ، وعده أعداؤه خوفا واحجاما. وهو الرجل الذي يأنس بالموت كما يأنس الطفل بثدي أمه .

ولذلك يخاطب هؤلاء الذين ارتابوا في موقفه :

« اما قولكم : أكل ذلك كراهية الموت ؟ فوالله ما أبالي ادخلت الى الموت ، أم خرج الموت الي . وأما قولكم شكا في أهل الشام فوالله ما رفعت الحرب يوما الا وانا اطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي ، وتعشو الى ضوئي . وذلك احب الي من ان اقتلها على ضلالها ، وان كانت تنوء بآثامها» .

وهو ، بعد ذلك ، حين يضطر الى القتال ، يريده قتالا انسانيا ، لا تذهب فيه القسوة والشدة مداها . بل يوصي أصحابه بقوله :

لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم ! فانكم بحمد الله على حجة ، وتركهم اياهم حتى يبدأوكم حجة اخرى لكم عليهم .

(١) من كتاب الامام علي: لجورج جرداق، ص٥٤، ٥٥.

روائع العلم والثقافة

لأول مرة في اللغة العربية نضع بين يدي القارئ العربي الترجمة الدقيقة لأروع المغامرات والجولات العالمية في دنيا العلم والثقافة وذلك بحجم جديد وسعر زهيد واخراج فاخر

صدر من المجموعة

١- في اغوار المحيط ٢- الانسان رائد الفضاء
٣- العالم المتجمد ٤- نسور الجو

ثمن العدد الواحد ١٠٠ قرش لبناني

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

فاذا كانت الهزيمة بأذن الله فلا تقتلوا مدبرا ، ولا تصيبوا عورا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تهيجوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، فانهن ضعيفات القوى والانفس والعقول . ان كنا لنؤمر بالكف عنهن وانهن كمشركات » .

وحين يتهمه القوم بالانعزال عن القتال يجيبهم :

« ومن العجب بعثهم الي أن ابرز للطعان ، وان اصبر للجلاد ، هبلتهم الهبول ! لقد كنت وما أهدد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب . واني لعلى يقين من ربي وغير شبهة من ديني » .

ان هذا اليقين هو الذي كان يتجلى في كل ما يأتي به علي ، لانه ما شك يوما في الحق مذ رآه ، ولا غرب راي امرىء تخلف عنه .

وحين خوف علي من قتل الغيلة لم يزد ان قال بلهجة المؤمن بربه ، المستسلم الى قضائه : « وان علي من الله جنة حصينة . فاذا جاء يومي انفجرت عني، واسلمتني. فحينئذ لا يطيش السهم ، ولا يبرأ الكلم ... » .

وعلي أول من ظهرت عليه آداب الاشتراكية في الاسلام روحا ووافعا ، وقد كان مثل هذه الاشتراكية سائدا في زمن خلافة الصديق وعمر ، ولما جاء عثمان ــ وهو تاجر بطبعه ــ بدأ نظام الخلافة يبتعد عن الروح الاشتراكي ، ويجيز التملك على مدى واسع . وتعطى فيه القطائع الضخمة ، وتنفق الاموال على سعة . لكن عليا وما اشرب من روح الاسلام ، وما أنشئت عليه نفسه من زهد وورع ، واستخفاف بالدنيا عاد الى الاخذ بهذه الاشتراكية ، القائمة على ترويض النفس عليها ، لا على انها نظام يشبه انظمة الاشتراكية الحديثة . وكانت هذه الاشتراكية ترضي فريقا من الناس ، وتسخط فريقا آخر ، يغلب عليه اهل النفوذ والطموح .

ومن كلامه في هذا المعنى : « أاقنع من نفسي بأن يقال « أمير المؤمنين » ولا اشاركهم مكاره الدهر ؟ » .

ويروي ابن الاثير ان عليا تزوج فاطمة بنت الرسول، وما لهما فراش الا جلد كبش ينامان عليه بالليل، ويعلفان عليه ، ناضحا لهما بالنهار ، وما له غير خادم . فلما صار خليفة قدم عليه مال من اصفهان فقسمه على سبعة اسهم، فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة » .

وكان أول من رسخ دعوته هذه ان رد قطائع عثمان الى بيت مال المسلمين ، ونزع عن اصحابها تملكها ، وقال:

« الا ان كل قطيعة اقطعها عثمان ، وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود الي في بيت المال ، فان الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك به الاماء لرددته . فان في العدل سعة . ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق » .

وقصته في الوقوف بجانب « أبي ذر » الذي يعتبره المؤرخون أول اشتراكي في الاسلام قصة مشهورة. وقصة نضال أبي ذر معروفة . وقد ضاق به عثمان حتى نفاه الى « الربذة » خشية أن تشيع عقيدته في الناس ، فيفسد عليه الناس ــ على حد زعم عثمان ، وقد جرب عثمان وولاة عثمان ان يأمنوا دعوته بالمال ، فقسم المال ، ولم تبق له الا عقيدته .

ولما خرج الى المنفى تباعد عنه الناس اتقاء لغضب الخليفة ، ماعدا عليا الذي ودعه وشيعه في الطريق ، وهو يقول له :

« يـا ابا ذر ! انك غضبت لله فأرج من غضت له !
ان القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك . فاترك في ايديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم الى مامنعتهم ، وما أغناك عما منعوك ! وستعلم من الرابح غدا ؟ والاكثر حسدا ؟
فلو قبلت دنياهم لاحبوك، ولو قرضت منهم لأمنوك»
وموقف علي من اهله، بل من خاصة اهله يدل على هذا العدل الذي تجردت منه الدنيا ، وهذه العفة التي لاينطق بها الا مثالي كعلي .
وهذا اخوه عقيل ـ وكان مثقلا بالاولاد ، مرهقا بالفاقة ، أتاه يوما يطلب اليه ان يعيره من بيت المال ما يسد به جوع أولاده . فرده خائبا : ووصف طمعه به ، ويأسه منه بقوله :
« والله ، لقد رأيت عقيلا وقد املق ، حتى استماحني من بركم صاعا ، ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غبر الالوان من فقرهم ، كأنما سودت وجوههم بالعظام ، وعاودني مؤكدا ، وكرر علي القول مرددا ، فأصغيت اليه سمعي ، فظن اني أبيعه ديني ، واتبع قياده مفارقا طريقي.
فأحميت له حديدة ، ثم ادنيتها من جسمه ، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها.
فقلت له : ثكلتك الثواكل يا عقيل ! أتئن من حديدة احماها انسانها للعبه ، وتجرني الى نار سجرها جبارها لغضبه ؟ أتئن من الاذى ، ولا أئن من لظى ... ؟ » .
وهذا موقف علي من ابنته كما يرويه « علي ابن ابي رافع » وكان قيما على بيت المال في خلافة علي :
« كنت علي بيت مال علي بن أبي طالب وكاتبه . فكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة ، فأرسلت الي بنت علي بن أبن طالب ، فقالت لي : انه قد بلغني ان في بيت مال امير المؤمنين عقد لؤلؤ ، وهو في يدك ، وانا احب ان تعيرنيه أتجمل به في يوم الاضحى . فأرسلت اليها: عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة ايام يا بنت أمير المؤمنين.
فقالت: نعم ، عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام، فدفعته اليها . واذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه . فقال لها : من أين جاء اليك هذا العقد ؟ فقالت : استعرته من ابي رافع خازن بيت مال امير المؤمنين . »

ويروي عبدالله بن العباس أنه دخل على امير المؤمنين وهو بذي قار ، فرآه يحقف نعله ، فقال له : ماقيمة هذا النعل ؟ فقال : لا قيمة لها ، فقال علي : والله لهي أحب الي من امرتكم الا أن اقيم حقا ، أو أدفع باطلا .

وليس هذا الكلام بغريب على رجل وصف المتقين وصفا مثاليا ، وكان واحدا منهم : « فمن علامة احدهم انك ترى له قوة في دين ، وحزما في لين ، وايمانا في يقين ، وطلبا في حلال ، ونشاطا في هدى ، وتحرجا عن طمع . قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى. الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيدا فحشه ، غائبا منكره . حاضرا معروفه . مقبلا خيره ، مدبرا شره ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور . لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب . يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، ولا ينابز بالالقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخدعة..»
وعلي يتصف بديموقراطية قلما رأيناها على حاكم.

ولعل هذه الديموقراطية المتسامحة هي التي جنت عليه ، في وقت تكالبت فيه الاهواء ، وأشرابت مطامع الناس. فلم يجعل سياسته اخذا بالقمع والضرب ، وانما بناها على الجدل . والجدل ، وان أوصل الى الحق ـ فانه لذو دروب ملتويه ، ومسالك متشابهة ، يحتمي به المحق والمبطل ـ على السواء . ولنا في مجادلاته الكثيرة مع اصحابه نماذج قائمة على ذلك .
واول ما اتصفت به هذه الديموقراطية الصراحة التي لا تخفي وراءها شيئا . والحكم ـ حين هبوب الزوابع السياسية ـ يعصف به الجدل . ولا يستقيم على الجدل . ولذلك قالوا : ان صراحة علي اوصلته الى الخيبة ، وتكتم معاوية بلغ به النجح.
وكما قال صاحب كتاب «الامام علي» في الجزء الاول:
« لقد حرر علي نفسه مما تقيد به ولاة زمانه من أغلال الاشارة بالحسب والنسب ، وحرر نفسه من المطمع في الملك والمال والجاه والكبر والاستعلاء . وحررها من تخصيص ذويه ومحبيه بما ينفعهم دون سواهم ومن الحقد على خصومه ، والانتقام من مبغضيه . وحرر ضميره من كل مناجاة بعمل لا يثق بصلاحه ، أو قول لا يرضاه، فكان الضمير العملاق !...
اما تقواه فما كانت الا تقوى الاحرار ، يؤمنون فيعملون بوحي ما يؤمنون به . لا تظاهر هناك ولا مواربة . لا خشية من عقاب ، ولا طمع في ثواب » .
وقد يبلغ من نفسه معنى الديموقراطية انه ترك لاصحابه الحرية في اختيار اي الفريقين ، لانه لا يريد ان يشتري ضمائر الناس بالمال ، كما لا يريد ان يقهر ضمائرهم بالقوة . ولما كتب اليه عامله على المدينة « سهل بن حنيف الانصاري » يخبره أن قوما من اهلها لحقوا بمعاوية أجابه:
« لقد بلغني أن رجالا من قبلك يتسللون الى معاوية، فلا تأسف على مايفوتك من عددهم . ويذهب عنك من مددهم . فانما هم أهل دنيا مقبلون عليها ، ومسرعون اليها، وقد عرفوا العدل وراوه ، وسمعوه ووعوه . وعلموا أن الناس في الحق اسوة . فهربوا الى الاثرة .
فبعدا لهم وسحقا !
انهم ، والله ، لم ينفروا من جور ، ولم يلحقوا بعدل »
هذا كل ما نفس به علي من الم في هذا الموقف، وقد ترك لهم حرية الذهاب كما يريدون . لانه يؤمن بهذه الديموقراطية النزيهة . وقد يعرف من اصحابه ان الواحد منهم يهم بالخروج فلا يستكرهه ، ولايستبقيه . والناس احرار فيما يرون من عمل وقول ، وموالاة ومعاداة. الا أن يعتدوا على الناس ، أو يقيموا باطلا ، ويبطلوا حقا .. عند ذلك تفسد معاني الديموقراطية ، وتتشوه قدسية الحرية.
« وهكذا أدرك علي الحرية بأصولها ، فأطلق ادراكه هذا نصا صريحا ، واقام على هذه الاصول بناءه الجبار في الاخلاق الخاصة والعامة ، وفي علاقات الناس بعضهم ببعض ، وعمل بموجباتها مصلحا ومشترعا وقائدا وحاكما وواعظا .
واعطى على احترامه حق الناس في الحرية الواسعة كل يوم دليلا ولكن ضمن نظام يرسمه مفهوم الحرية نفسه، وهو الا تسيء حرية البعض الى حرية الجماعة »(١).

خليل الهنداوي

---

(١) الامام علي لجورج جرداق ج١ .